

الصوفية بين الاستقطاب السياسي والتوظيف الخارجي

محمد مبروك

مفكر إسلامي

ملخص الدراسة

انتبـه الغرب منذ بداية صدامه مع الإسـلام في العصر الحديث إلى الـدور الصوفي في تخريب العالم الإسلامي، وعلى وجه التحديد منذ الحملة الفرنسية على مصر وجيش الاستشراق الذي صاحبها، واستمر التعاون بين قوى الاسـتعمار والطرق الصوفية في كل مكان تقريبًا محلاً لاسـتهداف الإسلام، حيث أدرك الغرب أن ذخيرته في الصراع الدائم مع الإسلام تتمثل في الإعلاء من شأن الصوفية.

وقـد كان للصوفية دائمًا موقف يميل للغزاة والمسـتعمرين، فهم دائمًا يميلـون إلى الانعزال عن الواقع السياسي، كما شهدت عدة مواقف على مدار التاريخ توظيف الغزاة والحكام للصوفية لإرضاخ الشعوب.

وقد سيطرت الصوفية لفترات طويلة على بقاع عديدة من العالم الإسلامي، وكانت تختلف اختلافًا كبيرًا من حيث الانحراف والشطط عن منهج أهل السنة والجماعة؛ ولذلك كانت أداة في يد الغزاة، ولم تعمل على مجاهدتهم؛ إلا الفئات القليلة من الصوفية المنتمية للتصوف اسمًا فقط، ولكنها كانت عاملة ومتمسكة بمنهج أهل السنة والجماعة، كحركة الإمام شامل، والحركة السنوسية الليبية، والمجاهدين الديوبنديين الأفغان.

كما يلاحظ وجود علاقة بين الصوفية والنظم الحاكمة، وقد قامت الكثير من النظم الحاكمة بتوظيف أئمة الصوفية لدفع مريديهم إلى الانصياع الكامل للحكام، مهما بدا في سـلوكهم من مظالم ومخالفات، ومن ثَم فقد وجد الحكام على امتداد التاريخ في الصوفية خير معين لهم على تخدير الشعوب والاستبداد.

ولأن الإسلام الحقيقي هو الإسلام الشمولي فلا بد أن ذلك يمثل خطرًا على الغرب وعلى الصوفية على السواء، وذلك هو ما فطن إليه الفريقان، وأشارا إليه بكل وضوح؛ ما دفعهما إلى التحالف سويًا في مواجهة ما يسمى بالإسلام السياسي.

ولأن التصوف ينزع إلى البعد عن الدنيا، والإغراق في الغيبيات؛ فإنه يتناقض بذلك مع الإسـلام السني الشمولي الذي يربط الدنيا بالآخرة، ويوجّه الحياة عامة بقواعده وأحكامه، ومن ثم فإن الصوفية تمثل حليفًا فكريًا للغرب مضادًا للإسلام السني المجاهد، فضلاً عن كونها حليفًا سياسيًا.

وقـد تم عقد كثير من المؤتمرات وإعداد المخططات والتقاريـر، والانتهاء من كل ذلك إلى برامج محددة ومعلنة يتم العمل بها لدعم الصوفية، والعمل على نشرها في أرجاء العالم الإسلامي.



الصوفية بين الاستقطاب السياسي والتوظيف الخارجي

محمد مبروك

مفكر إسلامي

تمهيد:

مما لا شك فيه أن الصراع بين الغرب والإسلام هو صراع قديم، وإن أقصى ما فعله الحادي عشر من سبتمبر هو تأجيج الصراع وليس استحداثه(١)، ومن ثَم فقد انتبه الغربيون منذ بداية الصدام في العصر الحديث إلى الدور الصوفي في تخريب منظومة القيم والمفاهيم في العالم الإسلامي، وعلى وجه التحديد منذ الحملة الفرنسية على مصر وجيش الاستشراق الذي صاحبها، بل إن نابليون نفسه كان أول من احتفى بالمتصوفة، وشارك في موالدهم، واستمر التعاون بين قوى الاستعمار والطرق الصوفية في كل مكان تقريبًا محلاً لاستهداف الإسلام؛ حيث أدرك الغرب أن ذخيرته في الصراع الدائم مع الإسلام تتمثل في الإعلاء من شأن الصوفية، ومن ثم نتج عن كل ما سبق كما يقول الدكتور عبد الوهاب المسيرى: «أنه من أكثر الكتب انتشارًا الآن في الغرب مؤلفات محيي الدين ابن عربي وأشعار جلال الدين الرومي».(٢)

إلا أن الأمر بعد الحادي عشر من سبتمبر غدا أكثر وضوحًا وتحديدًا؛ فقد كان الانحياز الغربي السابق هو انحياز لأحد التيارات المنسوبة للإسلام، دون أن يعني ذلك العداء السافر لمختلف التيارات الأخرى، أما بعد الحادي عشر من سبتمبر، وانسجامًا مع اختزال بوش للصراع بين الغرب والإسلام «إما معنا أو علينا»؛ فقد غدا الانحياز الغربي للصوفية ليس مجرد انحياز، وإنما تحالف استراتيجي في مقابل الإسلام السني تحديدًا بكافة تياراته التي يتم اختزالها جميعًا في كلمة «الوهابية»، والتي يتم استخدامها كمرادف لكلمة «الإرهاب».

أولاً: الصوفية وتطورها التاريخي:

ما هي الصوفية؟

اختلفت الآراء في أصل اشتقاق كلمة التصوف اختلافًا كبيرًا بما في ذلك آراء أئمة التصوف أنفسهم، وأشهر الآراء أنها تنسب إلى الصفاء، أو لبس الصوف، أو أهل الصُّفَّة، أو كلمة (صوفيا) اليونانية بمعنى الحقيقة.

«ولا يقل اختلاف الصوفية في تعريف التصوف عن اختلافهم في أصله واشتقاقه، بل ازدادوا تعارضًا وتناقضًا فيه كثيرًا، ولقد ذكر الصوفي الفارسي قطب الدين أبو المظفر منصور بن أردشير السنجي المروزي المتوفى سنة ٤٩١هـ أكثر من عشرين تعريفًا.. أما القشيري فقد نقل في رسالته أكثر من خمسين تعريفًا

(١) راجع محمد إبراهيم مبروك: الإسلام والغرب الأمريكي: نظرية في تفسير الصراع.

(٢) المرجع السابق: ص١٢.

عن الصوفية المتقدمين.. كما ذكر المستشرق نيكلسون ثمانية وسبعين تعريفًا».[1]

وأيًا ما كان الخلاف حول اشتقاق التصوف أو تعريفه «فلا شك أن التصوف منهج نشأ قبل الإسلام فكرًا وسلوكًا وعقيدة، وأنه كان في كل الأمم والديانات، وخاصة في البرهمية الهندوسية، والفلسفة الإشراقية اليونانية، والمجوسية والفارسية».[2]

التطور الفكري والتاريخي للتصوف:

لقد أدرك أئمة الإسلام الأوائل أن من أسس الإيمان: العلم واليقين بأن الهدى هو هدى الله الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ولا أحد سواه، وأنه مهما بدا الأمر أمر تقوى وشدة خوف من الله، ولا يتبع في ذلك طريق محمد صلى الله عليه وسلم؛ فذلك باب من أبواب الضلال لا شك فيه.

ولقد كانت الشطحات الصوفية تمضي دونما اتجاه، ولا ينتظمها منهج معين؛ حتى جاء الحكيم الترمذي فقعَّد لها القواعد، ووضع لها التصور النظري الشامل الذي يستمد مقوماته من المبالغة: المبالغة في مفهوم الحب.. المبالغة في مفهوم الزهد في الدنيا.. المبالغة في مفهوم الولاية بوجه عام، ماضيًا في كل ذلك على غير طريق محمد صلى الله عليه وسلم، ومستعينًا في تبرير منهجه بالعديد من الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي كثيرًا ما تشتمل عليها كتبه. انظر مثلاً قول الحكيم: «فكل عامل قصد بعمله إلى أن يكتسب لنفسه ثوابًا مما أعده الله له في الجنة، أو يعده لنفسه جُنّة مما أوعده الله من عقابه؛ فقد اتخذ لنفسه دون الله عُدّة ومتعلقًا، فوُكِل إلى ما أعده لنفسه وتعلق به»[3] انظر هذا في مقابل قوله تعالى: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦]، وكأنه يوجه اللوم على نفس الأمور التي يوجه الله تعالى عليها ثناءه.

وبعد أن بلغ الشطح الصوفي مداه مع أمثال الحلاج والسهروردي، وادعاء الفناء والحلول والاتحاد؛ تهيأ الأمر لطور جديد من الانحراف الصوفي يمثل انعتاقًا كاملاً من كل عقائد الإسلام، بل وبناء تصور اعتقادي جديد لا علاقة له بالإسلام، وذلك مع المدعو محيي الدين ابن عربي صاحب نظرية وحدة الوجود بين الله والعالم؛ حيث يقول في كتابه (فصوص الحكم): «ولولا سريان الحق في الموجودات بالصورة ما كان للعالم وجود».[4]

لا شك أن التصوف منهج نشأ قبل الإسلام فكرًا وسلوكًا وعقيدة، وأنه كان في كل الأمم والديانات، وخاصة في البرهمية الهندوسية والفلسفة الإشراقية اليونانية والمجوسية والفارسية.

والذي بعد أن ادعى أنه خاتم الأولياء، زعم أن مكانة خاتم الأولياء أعلى من مكانة خاتم الأنبياء؛ وذلك «لأن الرسالة والنبوة -أعني نبوة التشريع ورسالته- تنقطعان، والولاية لا تنقطع أبدًا».[5]

وتلقف من بعده هذا الهذيان كل مجنون زنديق، اتخذ إلهه هواه؛ فذهب إلى وحدة الوجود، وادعى أنه هو أو غيره خاتم الأولياء، وقطب الأقطاب، مثل ابن سبعين والتلمساني أو ادُّعِي له مثل المزعوم السيد البدوي.

أما الطور الأخير من أطوار الصوفية فهو طور الدجالين -أو الدجاجلة على حد وصف بعض أئمة أهل السنة والجماعة المعاصرين لهم- وهم أولئك الذين استغلوا جهل الناس بالدين في العصور المتأخرة لبلاد الإسلام التي دهمها الغزاة من كل جانب؛ فاستعبدوا الناس وركبوا رقابهم، ونهبوا أموالهم، وأعانوا غزاة

(١) إحسان إلهي ظهير، التصوف: المنشأ والمصادر، إدارة ترجمان السنَّة، لاهور، باكستان، ص ٥٣.

(٢) د. عبد الرحمن عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، ص٣٢.

(٣) مكر النفس: نقلاً عن عبد الفتاح بركة، الحكيم الترمذي: ص٨٢.

(٤) فصوص الحكم بشرح القاشاني: ص٢٩ .ط الحلبي.

(٥) المرجع السابق: ص٢٩٥.

البـــلاد، ولعل الطريقة التيجانية خير مثل يُضرب في هـــذا الصدد؛ حيث يزعم مريـــدو التيجاني أن فضل قـــراءة ورده (صلاة الفاتح لما أغلق) أن «المرة الواحدة من صلاة الفاتح تعدل كل تسبيح وقع في الكون، وكل ذكر، وكل دعاء كبير أو صغيـــر، وتعدل تلاوة القرآن ستة آلاف مرة».(١)

والخلاصة في هؤلاء هي ما قاله فيهم المجاهد الكبير والإمام المجدد البشير الإبراهيمي: «وبالجملة.. فهذا الطـــراز الطُّرقيّ الذي أدركناه من آباء وأبناء يجمعهم قولك:(طلاب دنيا وعباد شهوات)».(٢)

ثانيًـا: موقـف الصوفيـة التاريخـي مـن الغزاة والاستعمار

الانعزال عن الواقع السياسـي كموقف مبدئي للصوفية:

بدأت الصوفية كما أشـــرنا كتوجـــه حقيقي مبالغ فيـــه في الانعزال عن الدنيا، ثـــم ادعاءات ابن عربي ومـــن تلاه، المهـــم أنها في الحالتين بـــدت بعيدة عن الاهتمام بالأمور الدنيوية، والسياسية منها على وجه الخصوص، يقول ابن عربي في فتوحاته: «ومن اتسع في علم التوحيد ولم يلزم الأدب الشرعي فلن يغضب لله ولا لنفســـه، فإن التوحيد يمنعه من الغضب؛ لأنه في نظره ما ثَم مـــن يغضب عليه لأحدية العين عنده في جميع الأفعال المنسوبة إلى العالم؛ إذ لو كان عنده مغضـــوب عليه لم يكن توحيـــدًا، فإن موجب الغضب إنما هو الفعل، ولا فاعل إلا الله».(٣)

وحقًّا ما يقوله ابن عربـــي مع مذهب وحدة الوجود؛ فليس ثم معتدي ومعتدًى عليه؛ لأن المعتدي والمعتدى عليه كلاهما واحد، ولكن الأهم من ذلك أنه يقدم كذلك تبريرًا نظريًا لمداهنة الأقوى بشكل مستمر، ويقول عبد الوهاب الشعراني في البحر المورود: «أُخذ علينا العهد لا نزدري من رفعه الله علينا من الأكابر في دين ودنيا؛ أدبًا مع الله تعالى، وما رفعهم علينا إلا لحكمة بالغة».(٤)

فأين مـــا يقوله هنا من الأدب مـــع الله، وإنما هو مجرد تسويغ زائف لنفاق الأقوى على الدوام.

ويقـــول أيضًا في لطائف المنن: «مما منَّ الله تبارك وتعالى به عليَّ: حفظي للأدب مع الســـلطان ونوابه؛ فلا أعترض عليهم في فعل ما هو من ملازمهم عادة، بل أبتكر لهم المحامل الحســـنة في الشريعة والأجوبة المسكتة، فحتي لو جاء ملوك الفرنج إلى بلادنا، فقام مماليك السلطان بخدمتهم وأركبوهم الخيل، وطرقوا لهم الطريـــق؛ لا أعترض، بل أحمل ذلك على محامل صحيحة في الشرع.. فإن الولاة أتم نظرًا منا بيقين، ولذلك ملَّكهم الله تعالى وحكّمهم فينا».(٥)

فهل رأيتم نفاقًا وتصريحًا باللعب بالشـــريعة أكثر من هذا؟!

ويقول التيجاني في رسالة إلى أهل فاس: «وسلموا للعامة وولاة الأمر ما أقامهم الله فيه من غير تعرض لمنافـــرة أو تبغيض أو تنكير، فـــإن الله هو الذي أقام خلقـــه فيما أراد، ولا قدرة لأحد أن يخرج أحد الخلق عما أقامه الله فيه».(٦)

توظيـف الغـزاة والحـكام للصوفيـة لإرضـاخ الشعوب:

لعل أفضل ما يســـتهل به الحديث عن العلاقة بين الصوفيـــة والغـــزاة بوجه عام، هو ما حـــكاه الزعيم مصطفى كامل عن رجل فرنســـي ادعى الإسلام في

(١) نقـــلاً عن الإمام محمد بن تقي المغربـــي، الهدية الهادية إلى الطريقة التيجانية: ص٣٧.

(٢) البشـــير الإبراهيمي، الطـــرق الصوفية، مكتبة الرضـــوان، الجزائر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ص ٥٨.

(٣) نقلاً عن: محمد بن عبد الله المقدي، التصوف بين التمكين والمواجهة، موقع الصوفية، ٢٠٠٨م، ص ٨٢.

(٤) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(٥) المرجع السابق.

(٦) المرجع السابق: ص ٨٢ ـ ٨٣.

تونس، ثم جاور أحد الأضرحة، وظل يتقرب منه حتى صار سادنه؛ ولما أرادت فرنسا غزو تونس واحتلالها؛ استعد أهلها للقتال، وذهبوا إلى ذلك الضريح ليستمدوا منه البركة، وهنا قال السادن: «دعوني حتى أستشير الشيخ»؛ فدخل ثم خرج فقال: «إن مولانا يقول لكم: إن الفرنسيين قضاء وقدر، ويجب عليكم التسليم للقضاء والقدر» فصدّ الناس عن الجهاد، واحتلت فرنسا تونس»[1]، فالموقف الصوفي الذي ذكرناه سابقًا من الغزاة والحكام- وهو الذي يتلاءم مع حقيقة الفكر الصوفي ذاته - يصنع هذه العلاقة الطردية بين معدل التعمق في الفكر الصوفي ومعدل الاستسلام للغزاة والمستعمرين، ولهذا يقول الحاكم الفرنسي في الجزائر: «إن الحكومة الفرنسية تعظّم زاوية من زوايا الطرق، أكثر من تعظيمها لثكنة جنودها وقوادها، وإن الذي يحارب الطرق إنما يحارب فرنسا!!»[2].

ويقول الشيخ إحسان إلهي ظهير -رحمه الله- في كتابه البريلوية وهي إحدى الطرق الصوفية بالهند: «إن الباحث والقارئ يندهش ويتحير عندما يرى أنه لم تقم حركة في شبه القارة لمواجهة الاستعمار إلا وخالفها البريلوي، وكفّر زعماءها»[3].

وفى عام (١٨٧٠م) حمل أحمد التيجاني شكر الجزائريين للفرنسيين! وبرهن على ارتباطه بفرنسا، فتزوج أوريلى بيكار، وبفضلها تحولت منطقة كوردان من أرض صحراوية إلى قصر منيف رائع، وهو أول مسلم جزائري يتزوج بأجنبية.[4]

ومما يذكر أن مدام أوريلى بيكار قد أصدرت كتابًا بعنوان (أميرة الرمال)، تعني نفسها، ملأته بالمثالب والمطاعن على الزاوية التيجانية، ومسلمي الجزائر، وذكرت أن أحمد التيجاني قد تزوجها على يد الكردينال «لافيجري» على حسب الطقوس المسيحية، وبقيت أوريلي على كاثوليكيتها، ولما توفي عنها زوجها خلَفه عليها وعلى السادة التيجانية أخوه علي، فأطلق عليها لقب (زوجة السيدين)».[5]

وقد كافأتها السلطات الفرنسية مقابل ما قدمته من خدمات بوسام جوقة الشرف، وقالت عنها في براءة التوجيه: «إن هذه السيدة قد أدارت الزاوية التيجانية إدارة حسنة كما تحب فرنسا وترضى، وساقت إلينا جنودًا مجندة من أحباب هذه الطريقة ومريديها، يجاهدون في سبيل فرنسا كأنهم بنيان مرصوص».[6]

يقول محمد كرد علي في مذكراته: «العجيب ألا يطلع بسر الطرق الصوفية ولا يفهم كتب القوم إلا الجهلة المتعبدون على نحو ما نرى في الطريقتين اللتين جاءت إحداهما - وهى القادرية - من الشرق، وكانت اختراعًا إنجليزيًا صرفًا، وجاءت الأخرى من الغرب وهي بضاعة فرنسية محضة».[7]

وقد نقل الكلام عبد الرحمن الجيلالي صاحب كتاب تاريخ الجزائر العام مستنكرًا - وهو صوفي المشرب- ثم علق قائلاً: «ولعل كرد يقصد من قوله: أولئك المعروفين، بمن جاءوا أخيرًا من مدعي المشيخة الذين تزعموا هاتين الطريقتين اللتين أشار إليهما كرد علي، وكانوا فعلاً عملاء متعاونين لمصلحة الإنكليزي والفرنسي، فإن كان هكذا فنعم إذن».

ويقول محمد فهر شقفة: «ونرى واجبنا؛ خدمة للحقيقة والتاريخ، أن نذكر أن الحكومة الفرنسية في زمن الانتداب على سورية حاولت نشر هذه الطريقة - التيجانية -، واستأجرت بعض الشيوخ لهذه المهمة، فقدمت لهم المال والمكان لتنشئة جيل يميل إلى فرنسا؛ لكن مجاهدي المغرب لفتوا انتباه المخلصين من أهل

---

(١) د. أحمد شكري، الدعم الأمريكي للصوفية، موقع صوت السلف، انظر الرابط:
http://www.yasserborhami.com/article.php?a=1625

(٢) أنور الجندي، الفكر والثقافة في شمال إفريقيا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م، (ص: ٥١، ٥٢).

(٣) نقلاً عن محمد بن عبد الله المقدي، مرجع سابق: ص٩١.

(٤) الفكر والثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا (ص: ٥٢).

(٥) المصدر السابق (ص:٥٢).

(٦) التيجانية (ص:٦١).

(٧) التيجانية (ص:٦٢).

البـــلاد إلى خطر الطريقة التيجانية، وأنها فرنســـية استعمارية تتستر بالدين، فهبّت دمشق عن بكرة أبيها في مظاهرات صاخبة».[1]

بعض الاســتثناءات التاريخية في قيام الصوفية بجهاد الغزاة، وتفسير ذلك:

إقــرارًا للحــق فلا بــد من الاعتراف بأنــه مع هذا الموقف الصوفي المخزي من العمالة مع الغزاة علــى امتداد التاريخ؛ فإن هناك بعض الحالات الاستثنائية التــي وقــف فيها بعــض قادة الصوفيــة في مواجهــة الغزاة، وقامــوا بمحاربتهــم، والمثــال على ذلك حركة الإمام شــامل، عندما قاد الجهاد القوقازي ضد القيصرية الروسية في الربع الثالث من القرن التاسع عشر.

وكذلك الحركة السنوســية الليبية في أوائل القرن العشــرين، وخصوصًا المجاهد الكبير الشــيخ عمر المختــار وكذلك المجاهديــن الديوبنديين الأفغان في مواجهة الإنجليز أواخر القرن التاسع عشر، والروس أواخر القرن العشــرين والأمريــكان في أوائل القرن الحالي.

ولكي تتضح الصورة لا بد أن نذكر أنه بالرغم من انتماء الإمام شامل للطريقة النقشبندية، وأنه كان يسمي أتباعه بالمريدين؛ فإن ذلك يكاد يكون صورة تقليدية للتدين في بقاع عديدة من العالم الإســلامي في ذلك العصر، كما أنه «لم يقم بالأوراد الصوفية المبتدعة المعروفة اليوم، ولم يكن يؤدي رابطة شــركية يدعو فيها غير الله، ويتصور فيها صور الشــيخ، ولم تكن صورة الشــيخ في جيبه – كما تفعل الصوفية اليــوم – ولا يعلقها على جداره في مصلاه، بل كان كثّ اللحية متبعًا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم، أما أنه سمّى مقاتليه بالمريدين؛ فإنما فعل ذلك بغية اختراع اسم يجمعهم حوله كما يجتمع مريدو الصوفية حول شيخهم؛ تشبيهًا لتنظيمه وحركته بالتنظيم الصوفي».[2]

أما بالنسبة للحركة السنوسية فيقول عنها الدكتور صــلاح العقبــي: «الطريقــة السنوســية طريقــة إصلاحية تجديدية تأثر مؤسسها بالحركة الوهابية لصاحبهــا محمد بن عبد الوهــاب قدس الله روحه، وتهدف السنوسية –فيما تهدف إليه– إلى نشر الإسلام وإصلاح عقيدته مما علــق به من أنواع البدع والضلالات».[3]

الصوفيــة ســيطرت لفتــرات طويلــة على بقــاع عديــدة في أنحــاء العالم الإســلامي، وكانــت تختلــف اختلافًــا كبيــرًا مــن حيــث الانحــراف والشــطط أو الاقتــراب مــن منهج الســنة النبوية، ولأن أغلب حالها الشــطط فقد كانت غالبًا ما تكون أداة في يد الغزاة ولــم تعمــل علــى مجاهدتهــم إلا الفئات التــي اقتربت كثيرًا من منهج أهل الســنة والجماعة

أما الديوبندية فقد نشــأت كمدرســة مستقلة عن الســيطرة الاســتعمارية على التعليم في ربوع الهند أواخر القرن التاسع عشر، وكان الفكر الصوفي مازال هو الفكر السائد هناك منذ عصر التدهور الحضاري الإسلامي، ولكن الكثير من علماء هذه المدرسة أخذوا على عاتقهــم تخليص هذه المدرســة من الضلالات والبدع، والالتزام بالكتاب والسنة، وهو الأمر الجاري العمل به حتى الآن، والخلاصة مما سبق أن الصوفية ســيطرت لفترات طويلة على بقاع عديدة في أنحاء العالم الإســلامي، وكانت تختلــف اختلافًا كبيرًا من حيث الانحراف والشطط أو الاقتراب من منهج السنة النبوية، ولأن أغلب حالها الشــطط فقد كانت غالبًا مــا تكون أداة في يد الغزاة ولم تعمل على مجاهدتهم إلا الفئــات التي اقتربت كثيرًا من منهج أهل الســنة والجماعة.

(١) محمد فهر شقفة، التصوف بين الحق والخلق: ص ٢١٧.

(٢) الفروق بين أهل السنة والصوفية: ص٤٩٩.

(٣) د. صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية بالجزائر... تاريخها ونشاطها، دار البراق، ٢٠٠٢م: ص ١٩٤.

ثالثًا: الصوفية والنظم الحاكمة:

حقيقة توظيف النظم الحاكمة للصوفية:

ذكرنا من قبل كيف يوجّــه أئمة الصوفية مريديهم بالانصياع الكامل للحكام مهما بدا في ســلوكهم من مظالــم ومخالفات، ومن ثم فقــد وجد الحكام على امتداد التاريخ في الصوفية خير معين لهم على تخدير الشعوب والاستبداد.

وبحسب د.عمار حسن فالصوفية «تعيش في ركاب السلطة، وعلى هذا الأساس فهي ربما تكون جزءًا من الاســتبداد؛ بالإضافة لكونها أحد تجليات الدين في التحول إلى فلكلور».(١)

وفي دراســة بعنــوان (عولمة الحركة الإســلامية الراديكالية الحالة المصرية) يذهب الدكتور جهاد عودة والدكتور عمار حسن إلى أن «هناك تيارًا دينيًا واسع الانتشار يتعدى في تمدده حدود الدولــة القومية، وهو الطرق الصوفية؛ حيث نجد أن بعض الطرق الصوفية لهــا أتباع في دول عديدة بما فيهــا الدول الأوروبية والولايــات المتحدة ذاتها، لكن ســكونية هذا التيار وانســحابه السياسي أو موالاته للحكــم في مصر عبر التاريــخ، ونهايته في الفلكلور الشعبي أكثر من تفاعله مع الحالة السياسية؛ يُخرجه من المعادلة فيمــا يتعلق بالقضايا الخارجية؛ حيث لا تخــرج رؤيته في الغالب الأعم عــن تلك التي تتبناها الحكومة».(٢)

ويــرى الدكتور عامر النجار: «أنــه قد يكون مما ســاعد على انتشــار الطرق الصوفيــة في مصر انتشــارًا عجيبًــا، واندفــاع عشــرات الألوف من المصريين للانضمام تحت لواء الصوفية؛ ليشــغلوا الشعب المصري عن التفكير في أحوال البلاد. فبدلاً من أن يشــغل الإنسان المصري بالتفكير في ظروفه الاجتماعية والاقتصادية السيئة، بدلاً من أن يفكر في فقــره وبلائه، بدلاً من أن يفكر في طريقة للخلاص من وضعه الســيئ بالثورة على الحاكم؛ فإن الحاكم نفسه يعمل على شغل فكره من خلال تشجيعه على الانضمام إلى إحــدى الطرق الصوفية، فيجد عالمه وخلاصه في رحاب الطرق».(٣)

يقول سيدي الجيلاني: «إنه من باب الاحتياط ولقطع الطريق أمام حملة الفكر السـلفي الجهـادي، يقـدم لأجهزة الأمن نسـخًا من ملفات الطلبة الذين يرغبون في الانتسـاب إلـى زاويته؛ حتى يتم تمحيصها والتحقيق فيها».

والمثال الآخر نســتطيع أن نقدمه من اليمن؛ حيث يذكر الدكتور عبد الله هارون رئيس جامعة الأحقاف في حــوار له مــع صحيفة ٢٦ ســبتمبر الرسمية (عدد ١٠٥١، ص١) أن الصوفية «هي شــيء عظيــم في تاريخ الأمة احتاجت إليه ومازالت تحتاج إليه».(٤)

ويصــف المرجعيــة الصوفية باليمــن على أنهــا «تكونت على اعتبار أن التدين أفضل من العمل السياســي، بمعنى الانفصال عن الصــراع السياســي، فتجنب العلماء الدخول في أي صراع منذ ذلك الحين وإلى الآن.

وامتنعوا عن الدخول في الاســتقطاب السياســي وهذا جعلهم واسطة مقبولة بين المتصارعين أنفسهم وبين المتصارعين وعامة الشعب، وأسست ثقافة سليمة قائمة على التورع عن الدم، والتورع عن المال، والقائمة على نشر المحبة، وتعظيم قيم السلام والتآلف».(٥)

وعلى الأسس السابقة فقد حظيت جامعة الأحقاف الصوفية من الحكومة اليمنية بدعم نوعي- حســب

(١) الحركات الصوفية تعيش في ركاب الســلطة، موقع إيلاف: ١٣ أبريل ٢٠١٠م.

(٢) ندوة مناقشــة كتاب (التنمية السياســية للطرق الصوفية في مصر): موقع العربية. نت.

(٣) د. عامر النجار، الطرق الصوفية في مصر.. نشأتها ونظمها وروادها، دار المعارف المصرية.

(٤) التصــوف والدور القــادم في خدمة الغرب، مركــز الجزيرة العربية للدراسات والبحوث، انظر الرابط:
http://www.aljazeera-online.net/index.php?t=9&id=30

(٥) المرجع السابق.

تعبيـــر الدكتور هارون- و«المتمثــل في منحنا أراضي اســـتثمارية، كوقفٍ تدرّ على الجامعة دخلاً ما دامت الجامعـــة تقدم عملاً خيريًا لصالح المجتمع، كما وجّه الأخ الرئيس باستيعاب عدد من خريجي كلية الشريعة بالمعهد العالـــي للقضاء، على اعتبار أنها تمثل الطرح المعتـــدل القائم علـــى التخصص العلمـــي والخطاب الديني المعتدل».[١]

هل ثمة تحالف بـين الصوفية والغرب والنظم الحاكمة في مواجهة ما يسمى الإسلام السياسي؟

لأن الإسلام الحقيقي هو الإسلام الشمولي فلا بد من أن ذلك يمثل خطـــرًا على الغرب وعلى الصوفية على السواء، وذلك هو ما فطن إليه الفريقان، وأشارا إليه بكل وضوح.

يقول الشـــيخ ســـاري علي حكمت، الأمـــين العام للاتحاد الوطني للزوايا بالجزائـــر: «فتح زاوية يعني غلق ســـجن»؛ بالنظر إلى الدور المهـــم الذي تقوم به الزوايـــا في تربيـــة النشء تربية دينيـــة وعلمية نقية من الانحراف والتشـــدد، وهو ما يفرقنا عن التفكير السلفي الجهادي «كانوا يتهمونا بالسير وراء السلطة والانصياع لأوامر الســـلطان، قد يكون ذلك صحيحًا! غير أن تجربة الســـنوات العشر الأخيرة أثبتت خطر الإسلام الجهادي على مكتسبات الأمة».[٢]

ويقول ســـيدي الجيلاني: «إنه مـــن باب الاحتياط، ولقطع الطريق أمام حملة الفكر الســـلفي الجهادي، يقدم لأجهزة الأمن نســـخًا من ملفات الطلبة، الذين يرغبون في الانتســـاب إلى زاويته حتى يتم تمحيصها والتحقيق فيها».[٣]

فـــي الفترة الأخيرة فـــي مصر ظهـــر جليًا تقرّب الحكومة من المتصوفة، وتقرب المتصوفة من الحكومة، بل والسعي من الطرفين للتقارب، فقد خلقت الظروف الملائمة للتحالف ضد الجماعـــات أمام الرأي العام، اعتبار الصوفية طرحًا دينيًا له مكانته عند المصريين، بينما هي تحتمي بالنظام ضد ممارســـات الجماعات الســـلفية التي ترى تحريم رفع القبـــاب على القبور، وتحريم الطواف بها وعبادتها، والتي تتعيش الجماعات الصوفية على بثها بـــين الناس، والتي لولاها لتقوض ركـــن ركين من أركان التصوف، ومن هنا فقد حرصت السلطة السياســـية على حضور الموالد والاحتفالات الصوفية، وكان شيخ مشايخ الطرق الصوفية الراحل أبو الوفا التفتازاني عضوًا في الحزب الحاكم ورئيسًا لعدة لجان داخل جهاز الدولة، بل وحرص رئيس الدولة السابق بنفسه على الصلاة في مساجد الأولياء، مثل مسجد الحســـين بالقاهرة ومســـجد السيد البدوي بطنطا.

رابعًا: التوظيف الغربي الأمريكي للصوفية:

نظرة القوى الغربيـة للتصوف كتوجه مضاد للإسلام السني الحقيقي:

التصـــوف ينزع كما أشـــرنا من قبل - ســـواء كان حقيقة أو ادعـــاء - إلى البعد عـــن الدنيا والإغراق في الغيبيات؛ ولذلك فهو يتناقض مع الإسلام السني الشـــمولي الذي يربط الدنيا بالآخرة، ويوجه الحياة عامة بقواعـــده وأحكامه، ومن ثم فإن الصوفية تمثل حليفًا فكريًا للغرب مضادًا للإســـلام السني المجاهد، فضلاً عن كونها حليفًا سياسيًا.

تقـــول فارينا علـــم -وهي أحد الممثلـــين للصوفية الموجودين في الغرب-: «من الممكن أن تصبح الصوفية اليوم - بتركيزها على القيم الإســـلامية المشـــتركة، ووضع الأهداف الســـامية نصب عينيها - بمثابة قوة كبيرة مضادة للإســـلام المجاهـــد»[٤]، وفي رده على

(١) المرجع السابق.

(٢) نقـــلاً من محمد بن عبد الله المقدي: التصوف بين التمكين والمواجهة: ص٨٣.

(٣) المرجع السابق.

(٤) نقـــلاً عن محمد بن عبد الله المقـــدي، نقض العُرى.. رؤية في البديل الغربي للتيار الســـلفي، مجلة البيان، العدد ٢٢٣، ربيع الأول ١٤٢٧هـ، مارس ٢٠٠٦م.

ســؤال من صحيفة صنداي استريت تايمز يقول: هل تقول: إن الوهابية هي المصدر الرئيس للإرهاب؟

أجاب هشــام القباني النقشبندي: «علموا الطلاب الصوفية؛ حيث يجب أن يتعلم الطلاب كيف يصبحون محبين للســلام، وكيف يصبحون جــزءًا من المجتمع الكبير، فالوهابية تحرّض الطلاب على ألا يكونوا جزءًا من المجتمع الكافــر، ولكن ينبغــي الاندماج والتكامل مــع النظام الذي يعيش فيــه المرء؛ ففي ســنغافورة مثلاً ينبغــي أن يكون المــرء جزءًا من نظامــه الفريــد، فلا يســتطيع القــول: أنا مســلم وأن الآخر صيني، فكلا المســلم والصيني مواطنان خاضعــان لنظام معين، أما الدين فمســألة بين المرء وبين الرب، هكذا يقول الإســلام، ودعني أقترح عدم اســتيراد العلمــاء؛ فهم يأتون من الشرق الأوســط وإفريقيا وهم يحملون عقلية البلاد التي أتوا منها، والــرأي عندي هو أن يكون التدريس فــي الجامعات من المقررات التي يوافق عليها العلماء الحداثيون المعتدلون».[١]

نظرة القوى الدولية:

أوصى تقرير مؤسسة راند لعام ٢٠٠٧م «أن يُستخدم التيار التقليدي والصوفي في مواجهة الإسلام السلفي، وقد تم تعريــف التيار التقليدي في هذا التقرير على أنــه التيار الــذي يصلي بالمســاجد ذات الأضرحة، بخلاف ما تدعو إليــه الوهابية، ويميل إلى التمذهب وعدم الاجتهاد والميل نحو التصوف. وأن من مصلحة الغرب إيجاد أرضية تفاهم مشتركة مع التيار الصوفي والتقليدي من أجل التصدي للتيار الإسلامي».[٢]

المخططات الغربية والأمريكية لدعم الحركات الصوفية لتنفيذ أجندتها في المنطقة:

قلنــا من قبــل: إن الاســتراتيجية السياســية بل والحضارية للغرب عمومًا، وأمريكا على وجه التحديد، غــدت تقوم على المعادلــة الآتيــة: التحالف الكامل مــع الصوفية، بمــا في ذلك الدعم العسكري، في مواجهة الإسلام تحت مسمى الوهابية والتطرف.

إن الاستراتيجية السياسـية بل والحضارية للغــرب عمومًا، وأمريكا على وجه التحديد، غدت تقــوم على المعادلــة الآتية: التحالف الكامل مــع الصوفية، بما فــي ذلك الدعم العســكري، فــي مواجهــة الإســلام تحــت مسمى الوهابية والتطرف.

وعلى هذه المعادلة الســابقة تم عقــد المؤتمــرات، وإعداد المخططات والتقارير، والانتهاء من كل ذلك إلــى برامج محددة ومعلنة يتم العمل بها على قدم وســاق دون اعتبار لأحدٍ، ولقد عبرت عما سبق بوضوح شديد الدكتوره هدية ميرا حمدي المدير التنفيــذي للمجلس الأمريكــي الأعلى في كلمتها في مؤتمر فهم الصوفية الذي عقده مركز نيكســون عام ٢٠٠٤م؛ حيث تقول: «إن الأحداث الخطيرة التي وقعت في القرن العشــرين (انهيار الإمبراطورية العثمانية، والحملات الاستعمارية لبعض القوى الغربية، والتراجع العام للحضارة الإسلامية) أدت إلى موجة جديدة من الفكر في العالم الإسلامي، تسعى إلى توحيد المسلمين في قوة سياسية موجهة ضد أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، وهذه الأيديولوجية يشــار إليها بالوهابية (ويطلق عليها اليوم الســلفية)، ووصف السلفية بأنها محاولة لتنقية ممارسات المسلمين حول العالم المتأثرة بالغرب والصوفيــة وغيرها، وهــذه الأيديولوجيات أرجعت فشــل المسلمين في مقاومة الاستعمار الغربي إلى أن فساد الاعتقاد يتبعه ما بعده».

«إن نجاح هذه الأصولية المسيسة اعتمد على إنشاء قوة موحــدة تكون قادرة على مواجهــة الغرب، وكان الحــل هو الرجوع إلى القرآن، ومن أجل استكشــاف النصوص المقدسة أعادوا تفسير الشريعة الإسلامية

(١) محمد بن عبد الله المقدي، الصوفية: ص٢٣.

(٢) د. باسم خفاجي، المفهوم الأمريكي للاعتدال الإسلامي.. قراءة في تقرير راند ٢٠٠٧م، مجلة البيــان، العدد ٢٣٦، ربيع الآخر ١٤٢٨هـ، أبريل ٢٠٠٧م.

بالاعتماد على تفسـير حرفي جدًّا للكتابات الدينية، وكان هذا الحل ناجحًا حقًّا».[1]

إن مـا ذكرتـه هدية ميرا حمـدي لا يعدو محض اعتصام المسلمين بالإسـلام الحقيقي (السني)، فما العيـب في هـذا؟! ولماذا يتم وَصْم ذلـك من منظور الديمقراطية الأمريكيـة بالتطرف والإرهاب؟! ويبدو أنه يكفي اتهام المسلمين بـ«التفسير الحرفي للنصوص المقدسة» لكي يتم وصمهم بذلك!

لكن هشـام قباني نائب رئيس الطريقة النقشبندية لـم يكتفِ في هذا المؤتمر بهـذا التعميم الذي ذكرته الدكتـوره هدية عـن الوهابية، بل أدخـل فيها «كل المجموعات المتطرفة الجديدة مثل الإخوان المسـلمين وحزب التحرير».[2]

والأغرب أنه أثناء المؤتمر تم توزيع دراسة بيانية توضح المذاهب الإسلامية، ذكروا خلالها أن المجموعة السلفية المقصـودة تضم (الوهابية - الجماعات الفلسـطينية الإرهابية - الجماعات الإسـلامية - حزب التحرير - جماعة التبليغ)، ومن الواضح أن ذكر جماعة التبليغ (وهي جماعة لها جذور صوفية) يعني أن المؤتمر يصرّ على التحالف مع الصوفية المتطرفة فقط، ومواجهة ما دون ذلك.

وفضلاً عن ذلك فقد أراد القباني تجريد السـلفية (والتي يقصد بها الإسـلام السني) من الانتساب إلى السلف الصالح؛ حيث ذهب إلى أنه «ليس ثمة مصطلح في الإسلام اسمه هذا المصطلح، يمكن إطلاقه فقط على القرون الثلاثة الأولى من الإسـلام، يُطلق عليهم السلف الصالح، وبعد ذلك لم يستخدم المصطلح حتى عام١٩٨٠م عندما قال الملك فيصل في افتتاحية مؤتمر ما: «نحن لسنا وهابيين، نحن سلفيون».[3]

(١) تقرير: (فهم الصوفية واستشـراف أثرها في السياسـة الأمريكية)، مركز نيكسون، ٢٠٠٤م، ترجمة د. مازن مطبقاني: ص ١٥ - ١٦.
(٢) المرجع السابق: ص٤١.
(٣) المرجع السابق: ص٤١.

أما شوارتز صاحب كتاب (وجها الإسلام) فيقول في نفس الاتجاه: «من الواضح جدًّا أن على الأمريكيين أن يتعلموا المزيد عن الصوفية، وأن يتعاملوا مع شيوخها ومريديها، وأن يتعرفوا على ميولها الأساسية... يجب على أعضاء السـلك الدبلوماسي الأمريكي في المدن الإسـلامية من برشتينا في كوسـوفو إلى كشغار في غـرب الصين، ومـن فاس في المغـرب إلى عاصمة إندونيسـيا جاكرتا، أن يضعـوا الصوفيين المحليين على قائمة زيارتهـم الدورية، يجب أن ينتهز الطلاب الأمريكيون ورجال الأعمال وعمال الإغاثة والسائحون فـرص التعرف على الصوفيين. الأهم من ذلك أن أي شخص داخل أو خارج الحكومة يشغل موقفًا يسمح له بالتأثير على مناقشة، ورسم سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط؛ يمكنه أن يستفيد من فهم هذا التقليد الفطري من التسامح الإسلامي».[4]

البرامج والوسائل والأدوات:

لا تقف الحـرب الفكرية على الإسـلام من خلال العمل على نشر التصوف عند حدود المخططات، ولكن سريعًا ما تتحول إلى برامج عمل على قدم وساق.

ففـي أكتوبر ٢٠٠٢م أُقيم فـي المغرب بالتعاون مع مؤسسـة كونراد الألمانية مؤتمر حول ابن عربي، وفي عام ٢٠٠٣م أُقيم بمكتبة الإسكندرية بالتعاون مع وزارة الخارجية الفرنسية مؤتمر حول الطريقة الشاذلية لمدة ٤ أيام.

وفى ٢٠٠٤م أُلقيت على مدى عشرين يومًا محاضرات عن الحلاج وابن عربي وابن الفارض، وفي ٢٠٠٤م تم افتتاح أول أكاديمية للصوفية في مصر، وفي ٢٠٠٤م أُقيم في عاصمة مالي المؤتمـر العالمي الأول للطرق الصوفية بغرب إفريقيا».

وفي احتفال ذكرى ثورة الفاتح من سبتمبر من عام ٢٠٠٥م أقامت الجماهيرية الليبية مؤتمرًا دوليًّا بعنوان

(٤) نقلاً عن التصوف والدور القادم في خدمة الغرب، مرجع سابق.

(الطرق الصوفية في إفريقيا.. حاضرها ومستقبلها)، وفي ٢٠٠٥م عُقد في الجزائر مؤتمر عالمي حول التصوف بجانب ضريح «سيدي بومدين شعيب».

ونستطيع أن نسرد حتى وقتنا الحالي عشرات، إن لم يكن مئات المؤتمرات الدولية التي تُقام حول الصوفية بدعم غربي وأمريكي على وجه الخصوص، ولكن المفاجأة الكبرى جاءت مع ما نشرته جريدة الدستور في يوليو٢٠١٠م.

فقد نشرت الجريدة على صفحتها الأولى «في الوقت الذي كان فيه شيخ الطرق الصوفية يبرم اتفاقًا مع الحكومة ممثلة في مؤسسة الأهرام لمواجهة المد السلفي والفكر الإخواني، قام ١٦ شيخًا من شيوخ الطرق الصوفية، على رأسهم الشيخ علاء أبو العزايم بعقد اجتماع مع سكرتير السفارة الأمريكية ممثلاً للإدارة الأمريكية في مقر الطريقة العزمية بمنطقة السيدة زينب، استمر الاجتماع لمدة ساعتين، وحضره ممثل لجهاز مباحث أمن الدولة. خلال اللقاء تمت مناقشة التنسيق بين شيوخ الصوفية في مصر وبين الإدارة الأمريكية؛ لنشر الإسلام الصوفي المعتدل بين المسلمين الأمريكيين، اتفق الشيوخ مع ممثل السفارة الأمريكية على أن تستضيف الإدارة الأمريكية على نفقتها(!) شيوخ الصوفية، كما اتفقوا معه على إقامة فعاليات وأنشطة مكثفة لنشر الإسلام الصوفي بين مسلمي أمريكا، وعلى تبادل الزيارات بين الطرفين.

كما تم الاتفاق على اختيار الشيخ علاء أبو العزايم كمنسق بين الصوفية في مصر وبين الإدارة الأمريكية. وقال الشيخ محمد عبد المجيد الشرنوبي (الذي لم يذكر الخبر صفته): إن ممثل الإدارة الأمريكية طلب استمرار اللقاءات والتنسيق بين الجانبين. وأكد على أن نموذج الإسلام الصوفي يمثل الإسلام المقبول والمرحب به في أمريكا، لكونه إسلامًا وسطيًا ومعتدلاً. وكان الشيخ علاء أبو العزايم - شيخ مشايخ الطرق الصوفية - قد استضاف اللقاء، وأكد فيه على متانة العلاقة بين الصوفية والشعب الأمريكي».[(١)]

وهكذا تحورت برامج العمل بين الأمريكيين والصوفية بكل هذا الإعلان والصراحة والوضوح.

ومن الطبيعي أن تكون لهذه المخططات والبرامج الغربية لنشر الصوفية أدوات ووسائل تعمل على تحقيقها في الواقع:

ولقد قدمت ميرا حمدي -المدير التنفيذي للمجلس الأمريكي الأعلى- مقترحاتها حول الأدوات والوسائل لتحقيق هذه الأهداف كالتالي:

الأول: القيام بالمحافظة أو إعادة بناء أضرحة الأولياء والمراكز التعليمية المرتبطة بها. فالسلفيون ينكرون فكرة الأولياء، وغالبًا ما يَهدمون ويحقّرون من شأن الأضرحة الموجودة منذ قرون وخاصة في آسيا الوسطى. وإن إعادة بناء هذه الأضرحة والمحافظة عليها سيقوّي التقليد القديم لدى الناس.

الثاني: المحافظة على المخطوطات القديمة، وترجمتها؛ فبعض الشعر العظيم والعلم والمخطوطات الأدبية المهمة تبقى محجوبة بسبب نقص التمويل لمجهودات نشرها وتوزيعها؛ وبمساعدة كهذه يمكن لهذه الوثائق أن تبرهن على نطاق أوسع الأهمية التاريخية لهذه التقاليد الإسلامية.

الثالث: يمكن للولايات المتحدة أن تساعد في إنشاء مراكز تعليمية وتمويلها، تقوم بالتركيز على التاريخ القديم والحضارة الخاصة بالمنطقة، مع تركيز معين على سوابق التسامح الديني والعرقي. وهذه المراكز يمكن أن تساعد المجتمع في المحافظة على الشباب الذين أصبحوا متذمرين من الفكر الوهابي.[(٢)]

(١) فهمي هويدي، تنسيق (روحي) مع أمريكا، جريدة الشروق الجديد، ٨ أغسطس ٢٠١٠، انظر الرابط:
http://www.shorouknews.com/Columns/Column.aspx?id=279762

(٢) تقرير (فهم الصوفية واستشراف أثرها في السياسة الأمريكية)، مرجع سابق، ص ١٧ - ١٨.

مقترحات أمريكية لنشر الصوفية

مقترحات «ميرا حمدي»

- إعادة بناء أضرحة الأولياء والمراكز التعليمية المرتبطة بها والمحافظة على الموجود منها.
- المحافظة على المخطوطات القديمة للصوفية وترجمتها.
- قيام أمريكا بالمساعدة في إنشاء وتمويل مراكز تعليمية تقوم بالتركيز على التاريخ القديم والحضارة الخاصة بالمنطقة مع تركيز معين على سوابق التسامح الديني والعرقي.

مقترحات «إلن جودلاس»

- تشجيع نشر كتابات الصوفيين المحليين وترجمة النصوص الكلاسيكية (من قبل صوفيين محليين) إلى اللغات المحلية المعاصرة وإلى اللغة الإنجليزية.
- تشجيع دمج القيم الصوفية مع قيم المجتمع المدني في المعاهد التعليمية.
- نصح العديد من دول آسيا الوسطى للتأقلم مع موقف الانفتاح نحو إعادة إحياء النقشبندية بصفة خاصة.
- تشجيع إحياء الثقافة والآداب الصوفية وفي الوقت نفسه إحياء تقاليد زيارة الأضرحة والمقامات في كل دولة.

أما ألن جودلاس بقسم دراسات الأديان بجامعة جورجيا؛ فقدم مقترحاته حول الوسائل والأدوات كالتالي:

١- تشجيع نشر كتابات الصوفيين المحليين، وترجمة النصوص الكلاسيكية من قِبل صوفيين محليين إلى اللغات المحلية المعاصرة، وإلى اللغة الإنجليزية؛ حيث يسبغ عليها ذلك الاهتمام شهرة وأهمية اللغة الإنجليزية، وبخاصة بالنسبة للشباب.

٢- تشجيع دمج القيم الصوفية مع قيم المجتمع المدني في المعاهد التعليمية.

٣- نصح العديد من دول آسيا الوسطى للتأقلم مع موقف الانفتاح نحو إعادة إحياء النقشبندية بصفة خاصة.

٤- تشجيع إحياء الثقافة والآداب الصوفية، وفي الوقت نفسه إحياء تقاليد زيارة الأضرحة والمقامات في كل دولة.(١)

وإذا علمنا أن الإدارة الأمريكية أنفقت ٧٠٠ مليون دولار على قناة الحرة وإذاعة سوا؛ أدركنا ما هي الأدوات التي تستخدمها هذه الإدارة في نشر الفكر الصوفي وغيره من أفكار في محاربة الإسلام، فالمال والإعلام على رأس هذه الأمور، وتنفق الولايات المتحدة هذا المال ببذخ شديد على كل الموالين لها في برامجها في نشر الصوفية، خصوصًا فيما يتعلق بالبعثات العلمية ورسائل الدكتوراه حول رجال التصوف، أما الإعلام فيكاد يقع تحت السيطرة الكاملة للتوجهات الأمريكية، وبهذا تخصصت قنوات فضائية كاملة لنشر الفكر الصوفي، وتم كذلك في قنوات أخرى الترويج لمشايخ التصوف جنبًا مع جنب مع نجوم الفن والإثارة، ولكن الملاحظة الأكثر حداثة في هذا الموضوع تتمثل في إبراز مشايخ الفكر الصوفي في الأعمال الفنية كالأفلام والمسلسلات على أنهم النموذج الأمثل للفكر الإسلامي، في الوقت الذي تُصبّ اللعنات فيه على غيرهم من شيوخ الإسلام بوجه عام، والذين يتم وصمهم عادة بالتطرف والإرهاب، ومن هذه الأدوات أيضًا ما دعا إليه العديد من مشاركي مؤتمر (فهم

(١) المرجع السابق: ص٢٣.

الصوفية) الذي سبق الإشارة إليه من وجوب اهتمام الولايات المتحدة بإعادة بناء الأضرحة والمقامات الصوفية.

أما أعجب هذه الأدوات وأخطرها فهي القوة العسكرية! نعم القوة العسكرية! فقادة الولايات المتحدة الأمريكية الديمقراطية جدًّا المفكرون، أعلنوا بكل صراحة أن على الولايات المتحدة أن تدافع عن الفكر الصوفي حتى ولو اضطرها ذلك إلى استخدام القوة العسكرية، يقول رئيس مركز الشرق الأوسط بالولايات المتحدة: «من منطلق حقوق الإنسان، يجب على الولايات المتحدة الأمريكية أن تدافع عن مشايخ الصوفية ضد من يضطهدهم حتى ولو باستخدام القوة في كثير من الأحيان».(١)

خامسًا: مستقبل التوظيف السياسي الغربي للصوفية في المنطقة:

للقارئ أن يعجب أن بعض الكتاب والمحللين - بعد الاستشهادات العديدة التي ذكرناها على امتداد الدراسة عن تحالف الصوفية مع الغزاة والحكام على امتداد التاريخ - يذهبون إلى أن الصوفية في هذا العصر لم يتعاونوا مع الأمريكيين؛ حيث يقول أحدهم: «إن الأمريكيين واهمون إن اعتقدوا أن الصوفية ستتسامح مع تصرفاتهم العدوانية، وستكون هينة لينة حيال مشروعهم الاستعماري، فالمتصوفة إن كانوا قد أظهروا في أغلب الأوقات خنوعًا وخضوعًا للسلطان والمستعمر ببعض الدول ومنها مصر، فإنهم في بلاد أخرى تصدوا للاستعمار وحاربوه بكل ما أوتوا من قوة، مثلما فعل عمر المختار شيخ السنوسية في ليبيا، والمهدي شيخ المهدية في السودان، والأمير عبد القادر شيخ الطريقة القادرية في الجزائر.

وعلى غرار ما فعل الشيخ ابن ماء العينين شيخ الطريقة الفاضلية ضد الاستعمار الفرنسي في موريتانيا، وما فعله شيوخ التيجانية ضد الفرنسيين في المغرب، وأحمد بمبا في السنغال، والشيخ رابح فضل الله في وسط إفريقيا، والحاج عمر الفوتي التكروري في غرب القارة السمراء، والملا محمد عبد الله حسن في الصومال ضد الاستعمار الإنجليزي والحبشي.

وعلى شاكلة ما فعلت النقشبندية في إندونيسيا حين حررت البلاد من الاستعمار الهولندي، وحين حافظت على الإسلام في آسيا الوسطى والقوقاز. وربما ينظر الأمريكيون وحلفاؤهم إلى الجزء الضئيل الفارغ من الكوب؛ حيث تعاونت بعض الطرق الصوفية أو أجنحة منها مع المستعمرين طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين، لكنهم ينسون أو يتغافلون عن الطابع الجهادي والنضالي الذي ميّز أغلب أفكار وممارسات متصوفة البلدان المحتلة، وهى سمة لا أتصور أن تسقط بالتقادم، ولا أعتقد أن مؤتمرات «غسيل المخ» أو «بث الأفكار المسمومة» بوسعها أن تجرف أمامها ميراثًا تاريخيًّا راسخ الأقدام لمتصوفة أمة أعرق من أمريكا بكثير».(٢)

ولا أدرى على أي أساس بنى هؤلاء موقفهم هذا، خصوصًا أن ذلك يتناقض مع فيض الوقائع التي ذكروها في كتاباتهم المتعددة والتي ذكرنا بعضها في هذه الدراسة.

فأبسط قواعد التفكير تقول: إن أحداث الماضي هي خير شاهد عما يمكن أن يكون في المستقبل؛ فإذا لم يكن ذلك حتميًا فهو حكم الغالب على الأقل، فإذا كانت العمالة هي غالب حالة الصوفية في الماضي، فكيف يمكن القول: إن ذلك أمر بعيد عنها في المستقبل؟!

(١) المرجع السابق: ص ٢٢.

(٢) د. عمار علي حسن، أمريكا والطرق الصوفية، جريدة المصري اليوم، العدد ٢٠٧٤، بتاريخ ١٦ فبراير ٢٠١٠م، انظر الرابط:
http://www.almasry-alyoum.com/article2.aspx?ArticleID=244165&IssueID=1683

وليست المسألة مسألة وقائع فقط، وإنما الأعمق والأخطر من ذلك هو المكنون الفلسفي لهذا التيار الصوفي، والذي يمثّل في أطواره العليا – مثل طور ابن عربي ومن هم على شـــاكلته – نقيضًا عقائديًّا للإسلام، ومن ثم كان مـــن الحتمي أن ينعكس ذلك على الواقع العلمي بتلك الحالة العدائية بين تلك الطرق الصوفية والإســـلام الســـني الشمولي الذي يمثل الإســـلام الحقيقي المجاهد، مهما اختلقوا له من مســـميات أو وصموه بالتطرف والإرهاب.

أما الأمثلة التي ذكرها بعض الكُتاب لمجاهدة الصوفيين للاســـتعمار؛ فإن الكثير منها مناقض للحقيقة بشكل فجّ، وأبرز مثال ذلك هو كلامهم عن جهاد التيجانية، وقد ذكرنا على امتداد الدراســـة الشـــواهد الدامغة على تعاون التيجانية مع الاستعمار وليس جهادها له.

والأمثلـــة الصحيحة التي ذكروها مثل جهاد الشـــيخ عمر المختار السنوســـي؛ بيّنا مـــن قبل أنه لا يحمل من الصوفية سوى الشكل فقط؛ لارتباط الطريقة السنوسية بمنهج أهل السنة والجماعة، بل وهجومها الشديد على الانحرافات الصوفية. ومن ثَم فلا نرى في الكلام عن الصعوبة المستقبلية للتعاون بين الصوفيين والأمريكيين إلا نوعًا من المجاملة أو المشاركة في التخدير.

معلومات إضافية

الصوفية في السياسة الأمريكية والغربية:

تسعى أمريكا والعالم الغربي للتمكين للصوفية في بلاد المسلمين، على حساب أصحاب المنهج السلفي؛ لأن هذا – كما يقولون – يساعد على الانسجام مع المنظومة الدولية، بالإضافة إلى قابلية الخضوع للقوانين والمعايير المتعارَف عليها دوليًّا، كما أن التمكين للصوفية يساعد على مواجهة المد السلفي، وإعاقته، ووضع العراقيل أمامه.

وهناك دلائل كثيرة تشير إلى أن السياسة الأمريكية والغربية باتت تنظر إلى الصوفية على أنها البديل المناسب للتدين لدى عامة المسلمين، ونذكر فيما يلي بعض هذه الدلائل:

– في يناير ٢٠٠١م أقيم المؤتمر العالمي الأول لدراسات الشرق الأوسط الذي عُقد بمدينة ماينز الألمانية، وقد كان برنامج المؤتمر مكتظًا بالبحوث والدراسات المتنوعة؛ أما ما يتعلق بالإسلام والحضارة الإسلامية فثمة بحثين هما: الإسلام الحديث والطريقة النقشبندية، والأولياء الصوفيون وغير الصوفيين.

– في ٢٨ مارس ٢٠٠١م عقد في مدينة هامبرج الألمانية المؤتمر الثامن والعشرين للمستشرقين الألمان، ومن ضمن البحوث التي قُدمت في المؤتمر بحث بعنوان «الأخوة الصوفية كحركات اجتماعية»، و(الحركة النقشبندية في داغستان) و (التيجانية) في غرب إفريقيا، وصورة الموالد الشعبية في مصر.

- في ٢٤ أكتوبر ٢٠٠٣م عقد مركز نيكسون للدراسات في واشنطن مؤتمرًا عنوانه «فهم الصوفية والدور الذي ستلعبه في السياسة الأمريكية»، وكان من أبرز الحضور الدكتور برنارد لويس، وهو من أبرز الناقمين على الإسلام، والدكتور كوركوت أوزال شقيق الرئيس التركي الأسبق تورجوت أوزال، ومحمد هشام قباني رئيس المجلس الإسلامي الأمريكي.

- يعتبر المجلس الإسلامي الأمريكي الصوفي الذي أسّسه هشام قباني مصدرًا مهمًّا للمعلومات لدى الإدارة الأمريكية عن الإسلام والمسلمين، وكان بول وولفويتز مساعد وزير الدفاع الأمريكي السابق يعقد لقاءات دورية مع أعضاء المجلس للتشاور معهم حول قضايا الإرهاب «الإسلامي»، ويحظى «قباني» بدعم كبير من الإدارة الأمريكية، ودُعي إلى البيت الأبيض والخارجية، وألقى محاضرات على مسئولين في واشنطن، إحداها كانت بعنوان «التطرف الإسلامي وخطورته على الأمن القومي الأمريكي».

– نشرت مجلة (يو إس نيوز) الأمريكية في تاريخ ١٧ أبريل ٢٠٠٥م تقريرًا بعنوان: «قلوب وعقول ودولارات» كتبه ديفيد كابلان. قال فيه: «يعتقد الاستراتيجيون الأمريكيون بشكل متزايد أن الحركة الصوفية بأفرعها العالمية قد تكون واحدًا من أفضل الأسلحة ضد تنظيم القاعدة والإسلام الجهادي؛ فالصوفية بطرقها الباطنية تمثل برأيهم توجهًا مناقضًا للطوائف الأصولية كالوهابية التي يمنع أشد أئمتها تعصبًا الموسيقى والرقص، لا بل حتى الحب الرومانسي». وذكر التقرير أيضًا أنه: «بينما لا يستطيع الرسميون الأمريكيون أن يُقرُّوا علنًا بسبب فصل الدين عن الدولة في الدستور الأمريكي، فإنهم يدفعون علنًا باتجاه تعزيز العلاقة مع الحركة الصوفية».

وقد استرعى انتباه متخصصين أمريكيين الصراع بين الحركات الإسلامية السلفية وبين الطرق الصوفية، ولذلك قررت الإدارة دعم الصوفية، ولكن بصورة غير مباشرة، وذكرت المجلة الأمريكية أنه في إحدى الدول العربية في شمال إفريقيا دعا قادتها في هدوء زعماء الصوفية المحليين، وقدموا لهم ملايين الدولارات كمعونة لاستخدامها كحصن ضد الأصولية المتشددة.

ـ بعد فوز حزب العدالة والتنمية بزعامة أردوجان الصوفي النقشبندي، بدأ مسئولون في السفارة الأمريكية في تركيا بزيارة الجماعات الإسلامية التركية -التي يغلب على معظمها الصبغة الصوفية بأشكالها المختلفة- ودراستها عن قرب، والاطلاع على حجم شعبيتها وتأثيرها، والتباحث مع قادتها حول رغبة الأمريكيين في استخدامهم في نشر «الإسلام المعتدل» خارج تركيا ضمن إطار الشرق الأوسط الكبير، وفي المقابل قدمت لهم وعودًا بدعم مالي وسياسي ومنح دراسية لأتباعهم في أمريكا.

– أوصت لجنة في الكونجرس الأمريكي مختصة بالحريات الدينية بتشجيع الحركات الصوفية في العالم الإسلامي، وفي كتاب أصدرته الباحثة شيريل بينراد -وهي زوجة زلماي خليل زاده - بعنوان (العالم الإسلامي بعد ١١ / ٩) تناولت الحركات والمذاهب الدينية القادرة على التغيير في العالم الإسلامي، وكتبت عند كلامها عن الصوفية أنهم: «يشكلون غالبية المسلمين اليوم، وهم محافظون على معتقداتهم الإسلامية وتقاليدهم المحلية، غير متشددين، يعظّمون قبور القديسين ويؤدون عندها الصلوات، ومجموعة الاعتقادات هذه أزالت تمامًا التعصب والشدة الوهابية، وأصبح الكثير من التقليديين يشابهون الصوفية في السمات والاعتقادات، ولا يرون تضاربًا بين معتقداتهم الدينية وولائهم لدولهم العلمانية وقوانينها» وقالت أيضًا: «الوهابية والسلفية هم أشد أعداء الصوفية والتقليدية في العالم الإسلامي، ونتيجة لهذا العداء فالصوفية والتقليدية هم حلفاء طبيعيون للغرب في حربهم ضد الراديكالية».

– تبني أمريكا كثيرًا من سياساتها إزاء العالم الإسلامي على تقارير مؤسسة (راند) ونحوها من المؤسسات الفكرية، وقد وردت الفقرة التالية في أحد تلك التقارير - وهي تبيِّن السلوك الأمريكي لتخريب الإسلام من داخله -: «تقوية مكانة الصوفية، وتشجيع الدول التي لديها تقاليد صوفية قوية للتركيز على ذلك الجزء من تاريخها، وإدراجه في مناهجها التعليمية».

في أواخر عام ٢٠٠٩م رعت بريطانيا إنشاء «المجلس الصوفي العالمي» في لندن، بترخيص بريطاني معتمَد من وزارة الخارجية البريطانية. وأصدر المجلس بيانًا عرَّف نفسه فيه بأنه «منظمة إسلامية تدعو إلى تحقيق السلم والسلام في العالم، وتتصدى للإرهاب والعنف والتشدد والتعصب، ولا تتدخل في سياسات الدول المختلفة، وتحترم كلَّ معتقَد لأي دين أو عقيدة، وتعمل على إزالة الخلافات العقائدية، وتقرّب بين الأديان المختلفة لتحقيق الاستقرار في دول العالم كله، والمجلس منظمة لها شخصية معنوية مستقلة، وأغراضها نشر الدين الإسلامي الصحيح، والدعوة إلى الله، ونشر الوعي الديني والثقافي».

والآن يُراد من الصوفية القيام بما لم تستطع العَلمانية القيام به، وذلك تحت وَهْم العناية بالقلب، وتزكية النفس والعناية بالروح، والزهد في الدنيا، فيجري إبعاد الدين عن التدخل في مجالات الحياة: كالسياسة والاقتصاد، وتنمية المجتمعات والقضاء على روح الجهاد؛ ليقرَّ للمحتلين قرارهم في الاستيلاء على بلاد المسلمين.

صرَّح برنارد لويس يومًا فقال: «إن الغرب يسعى إلى مصالحة (التصوف الإسلامي) ودعمه؛ لكي يستطيع ملء

الساحة الدينية والسياسية وَفْق ضوابط فصل الدين عن الحياة، وإقصائه نهائيًا عن قضايا السياسة والاقتصاد، وبالطريقة نفسها التي استُخدِمَت في تهميش المسيحية في أوروبا والولايات المتحدة».

وتسعى أمريكا والعالم الغربي للتمكين للصوفية في بلاد المسلمين على حساب أصحاب المنهج السلفي؛ لأن هذا – كما يقولون – يساعد على الانسجام مع المنظومة الدولية بالإضافة إلى قابلية الخضوع للقوانين والمعايير المتعارَف عليها دوليًا، كما أن التمكين للصوفية يساعد على مواجهة المد السلفي، وإعاقته، ووضع العراقيل أمامه.

المصادر:

الصوفية في مواجهة السلفية، مجلة البيان، افتتاحية العدد ٢٧٩، ذو القعدة ١٤٣١هـ، نوفمبر ٢٠١٠م.

محمد بن عبد الله المقدي، نقض العرى.. رؤية في البديل الغربي للتيار السلفي، مجلة البيان، عدد ٢٢٣، ربيع الأول ١٤٢٧هـ، أبريل ٢٠٠٦م.